

الآخر بين ادوارد سعيد و تدوروف

تاج محمد¹³

لا زال مفهوم الآخر يأخذ اهتمامات الباحثين في مختلف الميادين : فما فتت تطلعه له الدورات الكثيرة وفي التخصصات المختلفة ؛ فهو ظاهرة اجتماعية وأدبية وصوبية والتكنولوجية وبشكل فهو ظاهرة تشكل من إفراز اللاتجانس الحضاري. ولذا الزوام حضوره خاصة بعدما وصل العالم إلى أن يختصر مفهوم القرية.

ولما توصلت إليه الأبحاث في هذا الميدان أن " صورة الآخر ليست هي الآخر الصورة الأسمر بناء في المخيال وفي الخطاب، الصورة ليست الواقع حتى وإن كان الصراع حولها من رهانات الواقع. ولأنها كذلك فهي اختراع. أكد ذلك مثلا الباحث الفرنسي جان فارو عندما اعتبر أن الأنا الذي لا يوجد الآخر بهونه هو اختراع الزيجي ، متأخر نسبيا ، لارتباطه باكتشاف الوعي بالذات"¹⁴

إن الشغل الباحثين بهذه الظاهرة الفكرية العالمية نابع من قناعات معرفية ناتجة عن التفكير حضاري عميق، إذ تظل الحضارات متداولة فيما بين الأمم والشعوب.

ولعل مفهوم الأسمر في ثنانيا لمنجزات الحضارية ولعل أخطر ما يتكون أثناء المسار الحضاري ظاهرة المقلد ،التي تشكل انطلاقا من الرغبة في الاستمرار ف"آخر النحن" في ما القاء الأسمر العدو من صور مختلفة ، بحسب التجارب التاريخية التي عرفتها المجتمعات ، لاربع عداوة في كل ثقافة.

و في هذه المقاربة التي نرغب أن نقدمها، نحاول أن نتقرب من علمين لها الباع الطويل في ميادين متعددة، وقد استطاعا أن يقفا كشاهدين على الحضارة الأوربية

تتقسم بنوك المعطيات إلى أربعة اصناف: لكل منها استمالات خاصة، لكنها Les banques في إثراء البنوك للمصطلحية: البنوك الرقمية (banques numeriques) ؛ / البنوك النصية - (les banques textuelles) ؛ وبنوك والبنوك البيبلوغرافية (les banques bibliographiques) ؛ وبنوك المعطيات بالنصوص الكاملة (les banques de donnees en texte ; integral)

¹⁴ - Cf. Rosita Harvey et Michelle Rivard, Op. Cit. Idem

¹⁵ - Carmen Gomez et Maria Pinto, La normalisation au service du traducteur, Meta: vol.46, n° 3, 2001, p. 565

¹⁶ - DG Traduction, La traduction a la Commission: 1958-2010, Luxembourg: Office des

publications officielles des Communautés européennes, 2010, p10

¹⁷ - Ibid. p12

¹⁸ - Cf. Ibid, p10

¹⁹ - Ibid, pp. 10-11

لقد روج رينان (Renan) الفيلسوف الفرنسي المتيقن سنة 1892 إلى تصنيف البشر، وقسمهم إلى ساميين وآريين. وقرر تفوق الجنس الآري في مجال الفلسفة كما في مجالات أخرى، إذ يقول: "ما يكون لنا أن نلتصق عند الجنس السامي دروسا فلسفية. ومن عتائب القدر أنّ هذا الجنس الذي استطاع أن يطبع ما ابتدعه من الأدبيات بطابع القوة في اسمي درجتها لم يشر أدنى بحث فلسفي خاص، وما كانت الفلسفة قط عند الساميين إلا اقتباسا صرفا جديدا وتقليديا للفلسفة اليونانية". ومن هنا يؤكد أنّه "من الخطأ وسوء الدلالة بالألفاظ على المعاني أن نطلق على الفلسفة في شبه جزيرة العرب مبادئ، ولا مقدمات، فكل ما في الأمر أنّها مكتوبة بحروف عربية، ثم هي لم تزدهر إلا في النواحي النائية عن بلاد العرب مثل أسبانيا ومراكش و سمرقند، وكان معظم أهلها من غير الساميين.⁸

الوهيب شارحا أكثر للظاهرة وأسبابها المباشرة، في محاضرات ألقاها في القلعة دي فرانس (1862) أنّ "الإسلام هو احتقار العلم وإلغاء المجتمع المدني، إنّهُ السلطة المروعة للعقل السامي، التي تحدد الدماغ الإنساني، وتحول بينه وبين كل فكرة أو حقيقة، وكل إحساس رقيق وكل بحث عقلائي، ولتجعله في خدمة تكنولوجية أرضية "الله".⁹

إذا كانت المادة التي اعتمدها الاستشراق ممثلة في الرحلات التي قام بها الرحالة الأوائل باتجاه العالم العربي والإسلامي حيث استطاعوا أن يجمعوا ما أمكنهم من معلومات حول هذا الطارق الجديد إلى أوروبا، فإنّ هذه المعلومات قد أصبحت مادة أساسية لمختلف العلوم التي ساهمت في تمكين أوروبا للسيطرة على المنطقة العربية والإسلامية، وظهرت حلية بوضوح في كتاباتهم المختلفة. وهذا شأن كتاب "جون

وما زاد من خيالات الغرب في تعميق صورة الشرق وتحتها حتى تنشق والبعد الأوربي، حان اتجاه هذه العلاقة التحليلية الكثيرة عن واقع الشرق " فنحن أيضا معتلين بالعبء نفسه.... وهذا ما جعلنا عرضة لأن يقال فينا ما لا نعرفه عن أنفسنا. "⁶

فتور روح المقاومة مع الفراغ الإيديولوجي سمح للذات باستقبال فكر الآخر، بعدما استفرغت من النموذج الأصل الذي كان يملؤها " فالأنا تأثرت بقول الآخر فيها على نحو مقلق، بعدما استعجبت للانفعال الذي أحانا إلى صورة متطابقة مع ما تصور الآخر على

المنقول إلينا من خلائهم، لا عبر ما نراه بأنفسنا"⁷

ب- "العمة الجوهريّة" التي تسبب التخلف: قد استقر في ذات الغرب ما أمحاه ادوار سعيد بالشرق المشرق الذي صنعه ذهنية الغرب، وفق ما أمله عليه ظروفه التاريخ والفلسفية، وقد أصبح هذا المفهوم جوهرًا ثابتًا لا يتغير في الزمان والمكان، وهو معتل على

لا تقبل الشفاء. ويرى سعيد، أنّ الشرق شبه اختراع أوربي وأنّ الاستشراق ليس مجرد عيار أوربي متوهم عن الشرق "بل انه كيان له وجوده النظري والعملية وقد أنشأه من أنشأه، واستثمرت فيه استثمارات مادية كبيرة على مر أجيال عديدة، وقد أدرك

استمرار الاستثمار إلى أن أصبح الاستشراق باعتباره مذهبًا معرفيًا عن الشرق شبه مقبولة تسمح منافذها بتسريب صورة الشرق إلى وعي الغربيين... الإمبريالية السياسية تحكم مجالا كاملا من الدراسات والإبداع والمؤسسات البحثية. " وإذا كان الأمر كذلك فإنّ علة أخرى لازالت تلاحق الشرق ولن تسمح بالتغير، تلك النسبية في تخلفه، ولعل أول من صدح بها- وبنى عليها أحكاما-

أحمد حسن الزيات، من المسلمات المتخلفة بالشرق-أرنست رينان.

لوحيا ودعمت هويتها من خلال وضعها للناتج مقابل الشرق باعتبارها ذاتا
بالبينة... فالاستشراق برسته خارج الشرق وبعيدا عنه، وهذا ما يؤكد تيري هنتش
القول "إن الشرق هو اختراع غربي تمت صياغته عبر مراحل مختلفة ومتعاقبة بصورة
تطويع داسل الثقافة الغربية، ويؤشر هذا الاختراع مراحل تحولات الوعي الغربي بذاته،
وتتسم صورا للشرق وتنوع وتختلف طبقا إلى الاختلاف والتنوع الظرفي من الناحيتين
التاريخية والسياسية، فيكون إدراك الغرب للشرق قائما على نظام الصورة المتنوعة والتي
تتكسر الصراع السياسي والتاريخي في العالم الغربي، فلم يكن نظام التصور نظاما
واعدا، إنما هو تصور مقترن بما يحدث في عالم الغرب أكثر مما يحدث في أي عالم
آخر...
لا نعلم رأي نودوروف مما توصل إليه ادوارد سعيد، وكأخما يقيسان من مشكاة

ويستليك JOHN WESLAKE وهو بعنوان *فصول في مبادئ القانون
الدولي*، وهو كتاب ظهر عام 1899 متوجا لجهود سياسي معني بالساحة الدولية
كما يراها منظرو الإمبراطورية في مرحلتها الاستعمارية: فالخلاصة التي يأتي بها
الكتاب لا تعدو التصريح بأن العالم يقسم إلى مناطق متحضرة وأخرى متخلفة،
يلزم الغرب أن يعزها أو يحتلها، أي أن الفكرة كانت قائمة في التفكير الغربي. وعلى
الرغم من مسعى رجال عصر التنوير في القرن الثامن عشر إلى تغليب وجهة النظر
الإنسانية الداعية إلى إغفال التفرق الجغرافي أو العنصري، إلا أن النزوع الأقوى كان
يشغل آخرين، ويتحول إلى هاجس مقبول لدى DEFOE وغيره وهو يتخيل
إنسانه الأسود أو الملون محاجا إلى تنقيف آخر يتيح له حياة مختلفة عن حياة
رهنه.¹⁰

كما أن هذه النظرة لا يمكن أن تكون معزولة عن التفسير العنصري الذي
طرحه أرنست ريتان واقتبس عنه دي ساسي DE SACY وغيره حيث يتوزع
عالمه إلى جنسين، أري وسامي، إلى مبدع منتظم خلّاق، مركب، وآخر وصفني بـ"الغريب"
ظاهري، ناقل، وهو توزيع بدا مقبولا لعقول كثيرة خلطت بين التخلف الاجتماعي
، وبين التركيب العنصري للأجناس البشرية.

ولئن كان المستشرق ريتان يركز فيما سبق ذكره على الفلسفة فإنه يشير إلى أنهم قد ألغوا بها إلى الكلاب.¹²
تفوق العنصر الآري في الفلسفة وفي مجالات أخرى وعلى هذا الأساس نيت النظر
الاستشراقية على القول أن العقل للغرب وأن القلب للشرق.
تمكنت الثقافة الأوروبية من ابتداع الشرق عبر مفاهيم الاستشراق الذي اعتد على
تفوق العنصر الآري في الفلسفة وفي مجالات أخرى وعلى هذا الأساس نيت النظر
الاستشراقية على القول أن العقل للغرب وأن القلب للشرق.

تمكنت الثقافة الأوروبية من ابتداع الشرق عبر مفاهيم الاستشراق الذي اعتد على

عرايا كما ولدتهم أمهاتهم وكذلك نسأؤهم دون أي شعور بالخروج¹⁷ ثم يأخذهم

انسانهم إلى " أن الخنود برغم أنهم عرايا يسون أقرب إلى البشر منهم إلى

الحيوانات¹⁸ .

بالإضافة إلى انصافهم بالحيوانية التي تجعلهم لا يختلفون عن الحيوانات، فهم

مساوون في سجاياهم تغلب عليهم السذاجة¹⁹ .

ولم يبرز نبوة التهمك تسيطر على خطاب كولومبس عندما يتعلق الأمر

بالإضافة إلى القوة والسلاح فهو في سبيل الحديث عن جبنهم يرى أنهم " ليسوا

كولومبس عن البشر الذين يراهم إلا مجرد أنهم هم أيضا يشكلون ، في نهاية المطاف

جزءا من المشهد الطبيعي . ودائما ما ترد إشارته إلى سكان الجزر وسط ملاحظة

المتعلقة بالطبيعة . حيث يحتلون موقعا ما بين الطيور والأشجار¹⁴ فهم "أي البشر

"ما تعرضه الطبيعة للزائرين، يشكلون بالإضافة إلى ورودها و جبالها وعضائها

وحيواناتها مشهرا بانوراميا جيلا يسعد به الزائرون . فهو لا يرى المناطق التي حل

إلا ما يشير إلى الثروة وخاصة الذهب و في المناطق الداخلية من الأراضي توجد كـ

كثيرة من المعادن وسكان لا حصر لهم¹⁵ .

يواصل تودوروف تحليله لرؤية كولومبس العنصرية التي تميل إلى تصويرهم كـ

ولا فاصل بينهم وبين هذه الحيوانات التي تعيش معهم ، فهو في تقديمه لعادة

بالأخص "أن النساء المتزوجات يرتدين سواثر عورة من لقطن ، بينما لا نرا

الفتيات شيئا ، وذلك فيما عد قليلات في الثامنة عشرة من العمر¹⁶ . فأول

لؤلؤ الناس تصدم كولومبس هي غياب الملابس - والتي ترمز بدورها إلى

لهؤلاء الناس تصدم كولومبس هي غياب الملابس - والتي ترمز بدورها إلى

"وهو يشعر بخيبة الأمل إلى حد ما لأنه لم يجد غير متوحشين وتكرر

الملاحظات و بين المسلمين (الخاضعين لسلطته) والهنود الميالين إلى الحرب والذين

في العلامات والتأويل والاتصال: إذ لا يمكن تصور علم العلامات خارج العلاقة من

الأخر¹³ .

فقد آمن كريستوف كولومبس قبل إبحاره بنظرية صنعها المؤسسة الدينية في أوروبا

ودعيتها النظرية العنصرية التي روج إليها أرنست ريتان، فسم يكن كولومبس مجرد قائد

رحلة الغامرين بل هو الداعي والمعلم لهذه الأفكار، فقد كان يحمل معه مشروعا أوروبا

متكاملا وهذا لا يتعد عن المنظور الأوربي للشرق العربي والإسلامي " لا يتحدث

كولومبس عن البشر الذين يراهم إلا مجرد أنهم هم أيضا يشكلون ، في نهاية المطاف

جزءا من المشهد الطبيعي . ودائما ما ترد إشارته إلى سكان الجزر وسط ملاحظة

المتعلقة بالطبيعة . حيث يحتلون موقعا ما بين الطيور والأشجار¹⁴ فهم "أي البشر

"ما تعرضه الطبيعة للزائرين، يشكلون بالإضافة إلى ورودها و جبالها وعضائها

وحيواناتها مشهرا بانوراميا جيلا يسعد به الزائرون . فهو لا يرى المناطق التي حل

إلا ما يشير إلى الثروة وخاصة الذهب و في المناطق الداخلية من الأراضي توجد كـ

كثيرة من المعادن وسكان لا حصر لهم¹⁵ .

يواصل تودوروف تحليله لرؤية كولومبس العنصرية التي تميل إلى تصويرهم كـ

ولا فاصل بينهم وبين هذه الحيوانات التي تعيش معهم ، فهو في تقديمه لعادة

بالأخص "أن النساء المتزوجات يرتدين سواثر عورة من لقطن ، بينما لا نرا

الفتيات شيئا ، وذلك فيما عد قليلات في الثامنة عشرة من العمر¹⁶ . فأول

لؤلؤ الناس تصدم كولومبس هي غياب الملابس - والتي ترمز بدورها إلى

لهؤلاء الناس تصدم كولومبس هي غياب الملابس - والتي ترمز بدورها إلى

"وهو يشعر بخيبة الأمل إلى حد ما لأنه لم يجد غير متوحشين وتكرر

الملاحظات و بين المسلمين (الخاضعين لسلطته) والهنود الميالين إلى الحرب والذين

في العلامات والتأويل والاتصال: إذ لا يمكن تصور علم العلامات خارج العلاقة من

الأخر¹³ .

سليمه (في ليلة كريستس) خلال هذه الرحلة ، تجلّى الرب من خلال معجزات كثيرة رائعة²⁵.

وقامه منبقة من إيمانه بالعمل الذي كان يقوم به ، يتم كولومبس عمله بسلح هويات هذه الشعوب من مجزاتها ، ويصل هذه المرة إلى إعادة تسميات الأماكن²⁶ .
فكان كولومبس يعرف حق المعرفة أن هذه الجزر لها أسماء بالفعل أسماء طبيعية (ولكن بقبول آخر للمصطلح) لكن كلمات الآخرين لا تحمى كثيرا وهو إعادة تسمية الأماكن من زاوية المزية التي تخلفها في اكتشافاته يسعى إلى استرجاعها ، وهو يلجأ فيما بعد ، وقد استند إلى هذا الحد أو ذلك استخدام²⁶.

وقد لعب الدين دورا كبيرا في إنزال المخطط الأوربي منزله فقد سجل أنه حين بدأه السلام الديني والملك ، إلى حافز أكثر تقليدية²⁶ .
القساوسة المرافقون لكولومبس في تحويل الهند إلى المسيحية ، إلا أنه ليس صحيحا عمل الصيغة الشرقية عند كل من سعيد وتودوروف جعلتهما يتلاقان من ذهنية أنتم كلهم يستسلمون لذلك ويوافقون على إعلان الصور المقدسة . "بعد أن زارنا ، استطاعت رصد حركة الأنا الغربية وفق خطط اتصفت بالعلمية ، فاختراع هؤلاء الرجال الكنيسة الصغيرة ، رمو بالصور على الأرض وغطوها بكومة من الزنبرك وربط عدد البعض بسباق الاكتشافات الغربية وبما وفرته من شروط الخطاب وبألوا عليها "وعندما رأى بارثولومي ، شقيق كولومبس ذلك قرر معاقبتهم بأسلوب الاستلاب الثقافي . من هذه الوجهة ، وهذا عند سعيد كما يعتبر الخطاب مسيحي تماما " فيوصفه مساعد الوالي وحاكم الجزر ، قام بمحاكمة هؤلاء الرهبان والقساوسة²⁴ .
الحقراء ، وبعد أن تم إثبات اقترافهم للحرائم التي ارتكبوها أمر بإحراقهم علنا²⁴ .
فكولومبس يرى أن ما يقوم به هو خدمة مجد الثالوث المقدس ولجد المسيح²⁷ .
المقدس كان كولومبس متدينا "إته لا يبدأ الإبحار يوم الأحد وهو مكر برسالة سماوية ، ويرى التدخل الإلهي في كل مكان ، في حركة الأمواج كما في

يستحقون لذلك أن يلقوا العقاب ، لكن الشيء الحام هو أن أولئك الذين ليسوا مسيحيين بالفعل لا يمكن إلا أن يكونوا عبيدا .
لقد أعد كولومبس كل شيء سلفا ، وكان ينظر إلى الهند بمنظار قبلي ، بداية بانتماس مع هؤلاء القوم مروروا بتعرفهم بالقادم الجديد ، " هنا يمكننا أن نرى كيف تؤثر معتقدات كولومبس على تأويلاته ، وهو ليس حريصا على أن يفهم بشكل أعمق كلمات أولئك الذين يتحدثون إليه ، لأنه يعرف سلفا أنه سوف يقابل سيكلوبات عميق وبشرا لهم ذبول وأمازونيوات وهو يرى بجلاء أن الخوريات لسن ، كما قبل نساء من قبله ، يصحح وهنساها الأسماء الصحيحة ، وعلاوة على ذلك فإن إطلاق الأسماء على الأشياء جيلات ، بل إته بدلا من أن يستنتج أن الخوريات لا وجود لها ، يصحح وهنساها الأسماء الصحيحة ، وعلاوة على ذلك فإن إطلاق الأسماء على الأشياء²³ .
بهم .

- 10 - محسن جاسم الموسوي: الاستشراق في الفكر العربي - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ط1 - 1993، ص31-32
- 11 - لبري هنتش: الشرق الحثالي ورؤية الآخر "صورة الشرق في المخيال الغربي" رؤية السياسية الغربية للشرق المتوسط، ص6 مرجع سابق.
- 12 - فلاح أمريكا ومسألة الآخر فتح: توفيتان تودوروف تر بشير السباعي تقدم لبريال صوري غزول - سها للنشر - القاهرة ط1 1992 الغلاف
- 13 - فلاح أمريكا ومسألة الآخر فتح: توفيتان تودوروف تر بشير السباعي تقدم لبريال صوري غزول - سها للنشر - القاهرة ط1 1992 الغلاف
- 14 - فلاح أمريكا ومسألة الآخر فتح: توفيتان تودوروف تر بشير السباعي تقدم لبريال صوري غزول - سها للنشر - القاهرة ط1 1992 ص40
- 15 - فلاح أمريكا ومسألة الآخر فتح: توفيتان تودوروف تر بشير السباعي تقدم لبريال صوري غزول ص40
- 16 - المرجع نفسه ص40
- 17 - فلاح أمريكا ومسألة الآخر فتح: توفيتان تودوروف تر بشير السباعي تقدم لبريال صوري غزول - سها للنشر - القاهرة ط1 1992 ص40
- 18 - المرجع نفسه ص41
- 19 - المرجع نفسه ص42
- 20 - المرجع نفسه ص46
- 21 - فلاح أمريكا ومسألة الآخر فتح: توفيتان تودوروف تر بشير السباعي تقدم لبريال صوري غزول ص46
- 22 - فلاح أمريكا ومسألة الآخر فتح: توفيتان تودوروف تر بشير السباعي تقدم لبريال صوري غزول ص51

هوامش:

- 1- صورة الآخر العرب ناظرا ومنظورا إليه تحرير الطاهر ليبب إعداد مركز دراسات الوحدة العربية ط2 2008 بيروت لبنان ص21
- 2- إدوارد سعيد: المتفرج المغترب توفيتان تودوروف أرسلت في الأحد 25 مايو 2008 ترجمة: محمد غراي عن صحيفة لوموند 16 ايار مايو 2008 عن

القدس العربي

* شرقية الشرق: عبارة استعمالها ادوارد سعيد في كتابه "الاستشراق" والتي يقصد بها الصورة التي رسمها للشرق وعمل على أن يتخصصها الشرقيون.

3- إدوارد سعيد: الاستشراق - المعرفة - السلطة - الإنشاء - تر كمال أبو ديب -

مؤسسة الأبحاث العربية - لبنان، ط4 1995 ص40.

4- تيزي هنتش: الشرق الحثالي ورؤية الآخر "صورة الشرق في المخيال الغربي الرؤية السياسية الغربية للشرق المتوسط ص6-7 مرجع سابق

5- ادوارد سعيد: الاستشراق - المفاهيم الغربية للشرق، تر/ محمد عناني - رؤية للنشر والتوزيع - القاهرة، ط1 2006 ص21-22

6- ندم نجدي: أثر الاستشراق في الفكر العربي المعاصر عند إدوارد سعيد. حسن حنفي. عبد الله العروي - دار الفارابي - بيروت، ط1/ 2005، ص9

7- المرجع نفسه، ص9

* - مستشرق وفيلسوف فرنسي.

8- محمد عابد الجابري: التراث والحداثة دراسات ومناقشات - المركز الثقافي العربي - بيروت، ط1، 1991 ص65

9- لوي غاردي، ومحمد أركون: الإسلام الأمس والغد - دار التنوير - ب ط، 1972 ص86